بريد الجمعة

أثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ٣٠ يونيو ٢٠٠٠

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

موسم الحصاد !

أكتب لك رسالتى هذه بعد تفكير عميق.

فأنا رجل فى الثلاثين والأربعين من عمرى، جئت من قريتى الواقعة فى أعماق الجنوب بعد إنهائى الخدمة العسكرية لأبحث عن مستقبلى فى القاهرة، وزودنى أبى المزارع البسيط برسالة توصية شفوية لابن عم له يقوم بالمحاسبة ويملك مقهى مشهورا فى أحد الأحياء، وكان سعى حين جئت إلى القاهرة ٢٣ جنيها لا غير هى كل ما استطاع أبى الطيب ان يوفرها لى ويركبت القطار مودعا بدعواته ودموعه أبى لى بالتوفيق فى حياتى الجديدة وتوجهت إلى مقهى ابن عم أبى أو عمى كما سوف أناديه وعرفته بنفسى فرحب بى فى فتور وبدا واضحا من البداية انني أمثل له هما ثقيلا أضيف إلى همومه.. لكن ماذا يملك الشاب المنقطع عن أهله سوى أن يبتلع مشاعره ويصبر على ما لا يسره؟ وبعد أيام قليلة استضافنى خلالها عمى فى بيته وبدأت العمل معه إلى ان انجح فى الحصول على وظيفة، ولفت هو نظرى إلى أننى سوف أبيت فى المقهى إلى أن تتحسن أحوالى ويصبح فى مقدورى استئجار غرفة لإقامتى المستقلة، وأقرضنى بطانية قديمة استبست هى فراشى وغطائى ومتاعى الوحيد فى هذه المدينة القاسية. وبدأت عملى كساعد جارسون بالمقهى، أقضى يومى كله وجزءا كبيرا من الليل البى طلبات الزبائن.. واشترى لبيت عمى ما يحتاج إليه، وأنهى يومى الشاق بمسح المقهى، ثم أفرش البطانية والفرش وأنام فى مكتب عليها فأروح فى نوم عميق ٤ او ٥ ساعات على الأكثر. ثم يفتح المقهى ابوابه من جديد ويبدأ يوم العمل التالى.. واستمر الحال على هذا النحو عامين تحملت فيهما الكثير والكثير من ماكلفات الزبائن وعصبية عمى الذى لم يكن يتورع احيانا عن صفعى أمام الزبائن لخطأ ارتكبته عن قلة خبرة.. او عن جهل.. ولقد بكيت فى أول مرة صفعنى فيها عمى.. ليس لأم الضرب وحده ولكن لما شعرت به من هوان «انكسار» وفكرت جديا فى ان اترك كل شىء واركب القطار عائدا إلى بلدتى وأبى وأمى وأخوتى لأكل الخبز الجاف معهم بدلا من هذا الذل.. لكنى جبنت للأسف عن تنفيذ ذلك.. وكان أكثر ما أضعف عزيمتى هو مقدار الألم الذى سيشعر به أبى إذا عرف بمعاناتى وهم الرجل المصلى الصوام الذى يدعو ربه كل حين بالستر لنفسه ولبناته.. وهكذا تحملت ظروفى وصبرت على الأذى وكان أحد الأسباب التى ساعدتنى على الاحتمال هو زوجة عمى الطيبة التى تعطف علىّ وابنتها الكبرى التى كانت فى بداية الشباب وتتعامل معى باحترام وتهذيب.. وبعد عامين من هذا الشقاء رغم خلافها ورثى بصعقة كهلة جراءات بسبب كثرة المجهود وقلة النوم.. وجدت نفسى غرقا على سطح بيت قديم بجوار بيت عمى، واشتريت سريرا حديديا قديما ومرتبة وسخة ومائدة صغيرة وضعتها ببعض أدوات المطبخ القليلة.. واصبح لى مسكن مستقل فى القاهرة الصاخبة.. وبدأت كذلك اكتشف ان عمى لا يعطينى الأجر المناسب لمجهودى الكبير.. كما بدأت أعرف انه من حقى أن أتقاضى أجرا مساعدات كل يوم.. ارشدنى احد رواد المقهى للتقدم لمسابقة للعمل بأحد البنوك وساعدنى فى استرجاع مواد الدراسة التجارية التى درست بها فكانت المجزرة هى التى قد أجتزت الامتحان بنجاح وعينت فى هذا البنك.. وبالفعل لم يسعد عمى بعملى الجديد لأنه سيحرمه من نصف مجهودى معه، لكننى لم أبه لذلك، واستمررت فى العمل بالمقهى فى الفترة المسائية.. وبحت فبعثت أول مرتب لى جلست إلى المائدة الصغيرة فى غرفتى وكتبت لأبى خطابا قلت له فيه إن دعواته الصالحة ودعوات أمى قد أتت ثمارها.. وأننى أصبحت موظفا محترما بأحد البنوك الكبرى وأبى سرت إلى جانب عمتى الضارحين.. ثم أرفقت مع الخطاب حوالة بريدية بمبلغ ١٥ جنيها.

وبعد عدة أسابيع عدت إلى بلدتى فى الجنوب فى أول زيارة لأهلى بعد عامين وبعثة شهور وعطلت سعيدى وأبى يحتضنانى بعنف وأمى تزغرد فى وجهى ودموعها تسيل ولخوتى مبتهجون وسعداء بالهدايا البسيطة التى حملتها لهم.. ثم جاء الأهل والأقارب والجيران يرحبون ويهنئون بالعودة والهواء والتوفيق فى العمل.. وبحت فى القاهرة وأنا أكثر عزما وإصرارا على أن أبذل كل ما أملك من جهد لتحسين حالى ومساعدة أبى وكنت خلال وجودى معه قد صارحته بحبى لابنة عمى ورغبتى فى الارتباط بها فتحمسنى على ذلك مؤكدا أن أم والدها سوف يتشرف بمصاهرة موظف محترم وشاب مستقبم وناجح مثلى.. وأنه على استعداد للحضور للقاهرة ليخطبها لى.. لكنى اتفقت معه على أن أبنى عمى هى أولا وأولا وأخيرا حبيبتى كتبت لأبى ليحضر للقاهرة، وفاتحت عمى برغبتى ففوجئت به يرفض بخشونة الموافقة على طلبى.. ويذكرنى بقلة إمكاناتى وكثرة أعبائه أعباء أبى الخ.. وسمعت صدمة أخرى شديدة واستمعت منذ ذلك اليوم من العمل بالمقهى فى المساء.. وعلمت من عامل المقهى أن زوجة عمى قد عاتبت زوجها على رفضه لى وأنى شاب طيب ومن لحمه ودمه وسوف أصون ابنتها أكثر من غيرى فلم يغير رأيه.

وتفرغت لوظيفتى.. ثم بدأت بمساعدة الموظف الذى أعاننى على العمل بالبنك فى ممارسة تجارة العملة وكانت وقتها مازالت محظورة رسميا ولست أخجل الآن من الاعتراف بذلك لأنها كانت تجارة مثل أى تجارة.. وقد تغيرت القوانين بعد ذلك وسمحت بها.. وخلال ثلاث أو أربع سنوات كانت أحوالى المادية قد تحسنت كثيرا وانتقلت من غرفة السطح إلى شقة صغيرة بالجيب نفسه وتحسن مظهرى الخارجى.. وانتقلت فى إرسالى الحوالات البريدية لأبى وفى زيارة أهلى كل سنة.

كما لم أنقطع عمى فى المقهى من حين لآخر.. وزيارة زوجته وأولادهما.. وفى إحدى زياراتى هذه فاجأنى بأن طلب منى تهنئة ابنة عمى على خطبتها لتاجر ميسور الحال من معارفه.. فهنأتها وفى قلبى غصة لا يشعر بها أحد.

وانفجر بركان الغضب فى داخلى ليس من عمى ولكن من الظروف القاسية التى تحرم الإنسان من تحقيق أماله فى الحياة.. وتحول هذا البركان إلى طاقة هائلة على العمل لتحسين أحوالى وإشعار عمى بأن الصغير قد يكبر وانه قد خسر صهرا وزوجا لابنته كان يمكن أن يشرف به لو كان قد صبر قليلا عليه.

وازداد نشاطى فى تجارة العملة كما تاجرت فى السلع المعمرة.. اشتريها من تاجر تعرفت عليه وابيعها لموظفى البنك والبنوك المجاورة ولزبائن المقهى.. بالتقسيط الربح ويهامش ربح رخيم.. وفى أول الشهر أطوف على المشترين لتحصيل الأقساط.. ثم توسع نشاطى اكثر فشاركت هذا التاجر نفسه فى تجارته بعد أن أقرضته مبلغا كان فى حاجة إليه.

وبعد أربعة أعوام أخرى رغب هذا التاجر فى التقاعد بعد أن بلغ السبعين وليس له ولد يواصل تجارته من بعده لأن كل ذريته من البنات الزيجوات، فدفعت له الثمن الذى قدره بالتقسيط واصبح معرض الأدوات المنزلية ملكا خالصا لى وحافظت على ولفيتى بالبنك إلى أن انتهيت من دفع الأقساط، ثم استقلت وتفرغت لتجارتى وكان قرأ جريئا منى لكنى أقدمت عليه معتمدا على دعم لم نقشى فى نفسى وانهى أخى الأصغر دراسته المتوسطة ورغب فى المجىء للقاهرة فاستدعيته وكلفته بالعمل معى، وتركت له شقتى القديمة الصغيرة وانتقلت إلى شقة أفضل وازداد حجم تجارتى بمدد عمل أخى معى.. وازدادت أرباحى فاشتريت بعد ثلاثة أعوام محلا آخر قريبا من محلى وكتبت لشقيقى ٢٥٪ من ملكية تجارته مقابل أن يديره ويحافظ عليه.. وجاءنى بعد أمى وأبى لى بالسفر والصحة غير التليفون شكرا لى على ذلك.

ورأيت أن السفر يجرنى بى ذ تزوجت من كريمة تاجر ت معارفهى وأستقرت حياتى.. وساعدت أبى فى زراع الشقيقتين.. وشعرت بالرضا عن نفسى لذلك.. وجاءنى شقيقى ذات يوم ليقول لى فى خجل إنه محجب بفتاة تعمل فى محل تجارى يتعامل معه ويفكر فى خطبتها لكنه يخشى ألا أوافق على ذلك لأنها من أسرة بسيطة.. فقلت له على الفور: وهل كانت هناك أسرة أكثر بساطة من أسرتنا؟ أخطبها على بركة الله وأنا معك قلبا وقالبا فالسعادة لا تتحقق بالمال وحده! ثم أمد إلا وهو يخطبنى على يدى لبنتها قبل أن أسجعها مستغفرا ربى.. ومظهلا لزوجة الأولى.. الخ!

وبمصيبته المألوفة يكاد عمى يفقد صبره على فى أحيان كثيرة ويتشاجر معى لتردى فى تأدية مطالبه باعتبار ذلك «دينا له» على ويجب سداده وألا كنت جاحدا وناكرا للجميل! خاصة ان أحواله المادية الآن سيئة وأحوال ابنته كذلك.

ولقد لاحظت أننى قد تأثرت فى الفترة الأخيرة بهذا! انضغط واضطربت أحوالى. بعض الشىء ومازلت غير قادر على مواجهة عمى بالرفض القاطع أو القبول الصريح.. علما بأن زوجتى لن تقبل بزواجى بابنة عمى بأى حال من الأحوال.. وسوف تتمسك بالانفصال إذا أقدمت عليه! وأننى أرغب فى مساعدة عمى بالفعل لكنه لا يخفى على فى الوقت نفسه ما فى إلحاحه على بالزواج من ابنته من صعوبة، فى وضعط على بأنه أمى بالجهود والشعار بأننى لست «اصيلا» مثله وهو الذى احتضننى وأخذ بيدى حين جئت للقاهرة.. فماذا تقول أم؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قبل فى وصف الصحابة الأكرمين رضوان الله عليهم.. انهم كانوا «يكظرون عند الفزع.. ويقطرون عند الطمع» بمعنى أنهم كانوا يظهرون عند الشدة.. ويخفون عند توزيع الغنائم! فإذا كان عملك يتحدث عن «الأصالة» فهذا هو أحد أهم معاييرها.. أما أن يرفضك بخشونة وأنت شاب مكافح ويفضل عليك من هو أقدر منك ماديا على توفير الحياة اللائقة لابنته مذكرا او «مغيرا» إياك وهو الأصح بفقرك وقلة إمكاناتك وسوء أحوال أبيك المادية وكثرة أعبائه، فإذا شققت طريقك فى الحياة وتغلبت أمواجها المتلاطمة بنجاح إلى شاطئ الأمان المادى.. جاءك معاتبا إياك لانصراف شقيقك عن التفكير فى خطبة ابنته الصغرى ومغريا لك فى مرة ثانية بالزواج من ابنته الأرملة زاعما لك أن تكوينك عن ذلك أو تردك إزاءه يعد نقصا فى أصالتك أو نخوتك او وفائك له، فليس ذلك من المنطق او العدل فى شىء كثير أو قليل.. ولا تفسير لابتزازه النفسى لك بنهمة الجحود سوى أنه يستخدم كل ما هو متاح له من أسلحة عاطفية لإجراحك وتحقيق ما قد أصبح يرى فيه الآن أنه فى مصلحة ابنته الأرملة ومصلحته، بغض النظر عن عدالة ذلك او منطقيته.. إن كيف يكون رد الجميل، الذى يتوهمه هو بأن تعرض حدائك العائلية المستقرة للاضطراب.. واطفالك الصغار للتمزق بين أبويهم؟

إن هناك وسائل عديدة لرد الجميل.. إذا كان ثمة «جميل» لكنه ليس من بينها بكل تأكيد ان تضحى باستقرار حدائك العائلية وربما العملية كذلك لكى تدنت لعمك انك مازلت على عهد الوفاء مقيم.. أو انك مازلت الشاب الأصيل الذى عنته.

فالحق انك كذلك بغير حاجة لإيلام زوجتك.. وتعريض زوجتك وأبنائك للمعاناة، كما أنك لست فى حاجة لإثبات اصالتك هذه لأحد خاصة هذا العم الذى لم يكن هو نفسه على قدر الرجاء فيه حين جئت إلى القاهرة شابا حائرا غريبا لا عون لك ولا سند سواه.

ويكفى تماما لإثبات اصالتك انك كنت ومازلت نعم الابن البار بأبويه ولخوتك كما كنت ومازلت أيضا نعم القريب الذى لم ينقطع عن عمه بالرغم مما لاقاه منه.

فإذا كان عمك يعتبر نفسه مساهما فيما حققته من نجاح مادى فى الحياة العملية، فإن أهم أسباب نجاحك العملى وتوفيقك فى الحياة إلى جانب إرادتك القوية وصبرك على المكاره وكفاحك المرير - فى تقديرى - هو برك بأهلك وإعانتك لأبيك وأخوتك على أمرهم وعدم تنكرك إنسانيا لهذا العم بالرغم من كل شىء، فأى دور إذن لعمك هذا فيما حققت من نجاح؟ وأى دين له عليك يستوجب سداده أن تفقد زوجتك وتمزق أطفالك وتحرمهم من الشاة الآمنة بين أبويهما؟ إن عمك يستغل فيك يا صديقى أصالتك وحرصك على الوشائج العائلية وعليه بالرغم مما لقيت منه من عنت بلغ فى بعض الأحيان حد صفعك على الملأ وعدم الترفق بك فى ضعفك وقلة حيلتك.

ولقد أخطأ تقدير قدراتك ومميزاتك فى البداية ويريد الآن أن يعوض بعض ما أضاعه على ابنته بسوء التقدير وخطأ الحسابات ولقد قلت من قبل إنه ليس من حق من لم يشارك فى بذر البذور ورعاية النبتة الصغيرة أن يأتى فى موسم الحصاد ليطالب بنصيبه من ثمارها فإذا كانت أحوال ابنته المادية ليست على ما يرام الآن فإنك تستطيع إعانتها على أمرها ببعض زكاة مالك كما تستطيع أيضا إعانة أبيها إذا شاء ذلك بإقراضه ما يقيله من عثرته، أو حتى بتوجيه بعض زكاتك له إذا كان مستحقا لذلك، والأقربون أولى بالمعروف دائما من غيرهم، لكنه ليس من العدل والحكمة أن تكون أعانتك لها بالزواج منها وتعريض حياتك العائلية والعملية للخطر والاضطراب.. ولقد قلت فى رسالتك إن مشاعرك تجاه زوجتك تختلف عن مشاعرك السابقة تجاه ابنة عمك حين رغبت فى الارتباط بها وإن مشاعرك تجاهها «هادئة» وليست ملتهبة كما كانت مشاعرك تجاه الأخرى فى بداية الشباب.. ولقد فات عليك إدراك قيمة هذه المشاعر الهادئة نفسها وعدى عمك عليك وتخلخلها فى النفس والوجدان.. فالمشاعر الهادئة هذه ليست سطحية ولا ضعيفة الأثر فى نفس من يحملها.. وإنما هى تيار متصل ينمو للاستمرارية والمدات على خلاف المشاعر الفوارة الدافقة التى ترتفع إلى الذرى العالية فى بعض المراحل ثم تخمد وتهبط إلى سطح الفتور بعد حين.. وأكثر قصص الزواج نجاحا وتوفيقا وأستمرارا إنما اعتمدت على مثل هذا التيار الهادئ المتصل من المشاعر، أكثر مما اعتمدت على الفوران العاطفى المتأرجح دوما بين الحدة والخمود.

إنها مشاعر ينطبق عليها المثل الإنجليزى القائل: «بطء.. ولكن دقة» وهى أحد أسباب تفرغك الذهنى للعمل والابتكار والنجاح المادى فلا تستهن بهذه المشاعر او بعمق تأصلها فى أعماقك، فلسوف تكتشف بعد فوات الأوان أنها الأكثر دوما واستمرارا من تلك المشاعر الملتهبة التى تفور فورانها وتخمد بعد حين، وأحرص على زوجتك وأطفالك وحياتك العائلية المحترمة والمستقرة، واعتذر لعمك بحسم عن عدم قدرتك على تلبية مطلبه بالزواج من ابنته راجيا لها السعادة والتوفيق مع من تلائمها ظروفه.. ولا يجرى ارتباطه بها وإنقاذه لها من مشكلتها على حساب أسرته واستقرار حياتك.. وشكرا الله على ما أنت وعائلتك القيمة هذه من جوانب إيجابية وإنسانية تعلى من قيم الكفاح والإرادة والبر بالأبوين والأهل.